1- الحط من قيمة ملكة التفكير

يتمثل أحد أبرز مظاهر ابتذال الحياة الثقافية في تحويل المثقف إلى شخص قليل الأهمية على نحو فريد. حتى في فرنسا التي يفترض أن تكون موئل المثقفين، يبدو هؤلاء وكأنهم لا يؤدون أي دور ثقافي يذكر في حياة المجتمع. لاحظ أحد المراقبين الأميركيين أنه بالمقارنة مع شخصية مثل جان-بول سارتر، فإن «المثقفين الفرنسيين اليوم يبدون مجرد تكنوقراطيين هزيلين»[13].

يعكس المثقفون ثقافتهم ومزاج عصرهم. وقد تقلب الدور الذي يؤدونه والنفوذ الذي يستطيعون ممارسته في أثناء القرون الثلاثة الماضية. ليست هذه هي المرة الأولى التي ينظر فيها إلى دور المثقف في المجتمع على أنه دور ضعيف. في أثناء خمسينيات القرن العشرين، وفي أوج الحرب الباردة، كان العديد من المفكرين البارزين الموالين للغرب قلقين من حالة الاستنزاف التي تعانيها الحياة الثقافية. بدا أن عدم المبالاة والوهن العقلي أصابت أولئك المنخرطين في العمل الفكري. حتى وسائل الإعلام انضمت إلى النقاش وحاولت استنهاض ما رأت فيه إنتلجنسيا أصابها السبات. وطبقاً لإحدى الروايات:

> طوال عقد الخمسينيات، كانت المجلات والجرائد تحط من شأن الشباب بوصفهم أفراداً في «جيل صامت» غير مبالٍ سياسياً، سلبي فكرياً، لا يكترث للقضايا

الاجتماعيـة بقدر اكتراثـه للأمن الاقتصـادي، وينشغل بشكل كامل بحياته الخاصة[14].

علـى الرغم من أن هذا الوصـف يبدو على السطح، وكأنه يعلّق على مـزاج عصرنا، ينبغي الإشارة إلى أن نفوذ المثقف الذي كان ينتمي إلى «الجيل الصامت» في الخمسينيات كان أكبر بكثير من نفوذ مثقف هذه الأيـام. بالرغـم من صعوبـة قياس أو مقارنة هذا النفـوذ، إلاّ أنه من الممكـن الإشارة إلى عدد مـن الاختلافات المهمة بين الفترتين. إن نفوذ المفكرين على الحياة السياسيـة، وخصوصاً على اليسار، يتباين بشكل صارخ مع الحال اليوم. بالرغم من ذلك فإن القلق العام للغياب النسبي لصوت المثقـف كان دليلاً على الأهمية التي كان يتمتع بها هذا الصوت في الخمسينيـات. أما الموقـف الذي من المرجح أن يكـون مهيمناً اليوم فهو، «هل له بالفعل أي أهمية؟» إن غياب الاهتمام بمكانة المثقف تتباين بحدة مع المناظرات اللاهبة التي أحاطت بدوره في الماضي.

إننـا نعيش في زمن تعـبر فيه كتب ومقالات صحفيـة تحمل عناوين مثـل «آخر المثقفـين» عن إحساس طـاغٍ بالانفصال الثقـافي. إن وصف مفكر عـادي جداً بـ «آخـر المثقفين»[15] ليس مسألة محبـة ثقافية. واقع الحال هو أنـه ليس هنـاك العديد من الأصـوات الفكرية المتميّزة، ومن الصعوبة بمكان الإحساس بأثرهم الجمعي على المجتمع. وبالفعل فإن غياب حركة فكرية مهمـة مسخّرة لتعزيز مجموعة متميّزة من الأفكار في أذهان الجمهور الأوسع هو ما يوضح مزاج العزلة هذا.

من شخصية محورية إلى روح ضائعة

يمكن فهم أهمية هذا التغيير الذي طرأ على مكانة المثقف بسهولة أكبر عندما يوضع في سياقه التاريخي. طوال القرون الثلاثة الماضية تقريباً، كان المثقف يتمتع بسلطة ثقافية ونفوذ ثقافي هائلين. كان المعلقون في كثير من الأحيان يعبرون عن إحساس مبالغ فيه عن مكانة المثقفين، وكان يعتقد أنهم يتمتعون بقدرة كبيرة على التأثير في الأحداث. وكان المفكرون يصرون في كثير من الأحيان على أنهم متمردون خطرون يقودون الهجوم على النظام التقليدي ونجحوا في عملية إطلاق قوى الظلام المتمثلة في التدمير الراديكالي من عقالها. كان مثقفو عصر التنوير يلامون باستمرار لفرض أيديولوجيتهم المتمثلة في العقل على باقي المجتمع. وكانت إدانة بيرك لرجال الأدب، الذين كانوا «مولعين بتمييز أنفسهم»، و «نادراً ما يتحاشون الابتكار»، ومعجبين للغاية «بأفكارهم حول حقوق الإنسان إلى درجة أنهم نسوا وبشكل كامل طبيعته،» نموذجاً عن الانتقادات المكررة للمثقف الأناني المثير للمشكلات. لم يكن المثقفون محبوبين في معظم الحالات، إلاّ أنهم يؤخذون بكثير من الجدية.

مثلت معاداة النزعة الثقافية تياراً قوياً في الثقافة الأميركية. يقدم كتاب ريتشارد هوفستادتر «معاداة النزعة الثقافية في أمريكة» سرداً واضحاً لنفوذ هذا التيار. البيوريتاني جون كوتون الذي كان يقيم في نيو إينغلند حذر في عام 1942: «كلما كنت أكثر ثقافة وذكاء، كلما

كنت أكثر قدرة على خدمة الشيطان». كانت تلك المشاعر المعادية للأشخاص الأذكياء مدفوعة بالخوف من أن المثقف من المرجح أن يتجاوز الأعراف التقليدية.

ومنذ أيام بيرك والمثقفون يلامون على كل آفة تصيب المجتمع. اتهم العديد من النقاد اليمنيين في فرنسا مارسيل بروست على تسببه وبمفرده بالانحطاط الأخلاقي في الجمهورية الثالثة. وفي بريطانية كانت جماعة بلومزبري تُمثَّل على أنها مجموعة من الأوغاد في الخيال التقليدي؛ واتهمت الجماعة بزرع بذور الشك في رسالة بريطانية الإمبريالية. وكانوا يصورون على أنهم المستفيدون المتحللون من عظمة بريطانية، ويستمتعون بالتدمير المنهجي للقيم للكافة التي تشكلت منها هوية الأمة. وفي الولايات المتحدة كان المثقف النيويوركي يتهم باستيراد أفكار غير أمريكية إلى البلاد. وفي أثناء ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، عُدّ راديكاليو الجامعات مسؤولين عن الانحدار الأخلاقي لأمريكة.

وكان المثقفون يتعرضون للشجب بوصفهم طفيليين غدارين، أو في أحسن الأحوال حمقى مفيدين. وكان نقاد هذا الغدر مدفوعين باعتقادهم أن الفوضى الاجتماعية والانحطاط الأخلاقي كانت التبعات المترتبة على التأثير الكبير الذي يمارسه المثقفون الديماغوجيون على الجماهير التي تصدقهم. إن العرض الأكثر منهجية لنظرية المثقف صاحب الدوافع السياسية الذي يؤثر في الرأي العام والذي يؤدي إلى دمار المجتمع يقدمه كتاب جوليان بيندا خيانة المثقف. يدين هذا الكتاب، الذي نشر في عشرينيات القرن العشرين،

المثقفين؛ لتخليهم عن دورهم بوصفهم حماة للحقيقة مقابل الارتباط السياسي. ويتهم المثقفين «بتقديس» السياسة وأنهم مسؤولون عن إثارة العواطف السياسية. يزعم بيندا أنه عندما يشارك المثقفون في الحركات السياسية، فإنهم يسبغون شيئاً من التماسك على العواطف ويحولونها إلى إيديولوجيات خبيثة. يكتب بيندا: «إن عصرنا هو بالفعل عصر التنظيم الفكري للكراهيات السياسية»[16]. طغى هذا الربط بين المثقفين والإيديولوجيات على عدد كبير من الدراسات التي كتبت عن الحركات الجماهيرية المتمردة في القرن العشرين.

بحلول مرحلة الحرب الباردة، كان تقليد اتهام المثقفين بالتطرف السياسي قد أصبح راسخاً. يطغى الاعتقاد بأن المثقف يحمل مسؤولية كبيرة عن نشوء الشمولية على مقالة آرثر كويستلر «الإنتلجنسيا» التي نشرت عام 1944. تنبأ كويستلر: «إننا مقبلون على عصر تزدهر فيه الدول الإدارية الكبرى» حيث «يفرض على الإنتجلنسيا أن تصبح قطاعاً خاصاً في الخدمة المدنية»[17]. ورأى جوزيف شومبيتر في المثقف تهديداً لبقاء الرأسمالية. في كتابه الذي نشر في أربعينيات القرن العشرين، الرأسمالية، والاشتراكية والديمقراطية، جادل شومبيتر بأن المثقف مسؤول عن تأسيس «مناخ معادٍ للرأسمالية»، وتكررت مثل هذه المجادلات في الستينيات، عندما عزي الإحساس الطاغي بالفوضى والتحلل الأخلاقي إلى أفعال المثقف الراديكالي ذي الدوافع السياسية.

ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تدعي إدانات الإرث التخريبي للمثقفين بأن هذه المجموعة القوية كانت قد أصبحت، أو على وشك أن تصبح،

طبقة جديدة. جادل بيرتراند دي جوفينيل في هجومه العنيف على المثقفين في أثناء الحرب الباردة بأن الإنتلجنسيا كانت تشكل أكبر تهديد للمجتمع: «لقد ساد افتراض ولوقت طويل بأن المشكلة الكبرى للقرن العشرين تتمثل في مكان العامل الصناعي الذي يكسب أجراً في المجتمع؛ ولم يتم توجيه الكثير من الانتباه إلى نشوء طبقة مثقفة واسعة، التي قد يكون مكانها في المجتمع مشكلة أكبر»[18]. وفي أثناء عقد من الزمن كانت هذه المجادلة قد أصبحت هي الرأي السائد. وبالتأكيد فإنه بحلول الستينيات أصبح الجميع يعلقون بأنه لم يتم الانتباه بشكل كافٍ لدور المثقف. وتبعت ذلك مباشرة نقاشات مستفيضة عن كيف أن الإنتلجنسيا حلت محل البروليتاريا بوصفها الطبقة الثورية الحقيقية.

قد يكون أكثر النصوص التي تصدت لقضية المثقف في السبعينيات ومطلع الثمانينيات أهمية هو كتاب ألفين غولدنر «مستقبل المثقفين ونشوء الطبقة الجديدة». ادعى غولدنر أن هذه الطبقة الجديدة كانت «أكبر قوة تقدمية في المجتمع الحديث وفي أي تحرر إنساني ممكن في المستقبل المنظور»[19]. كانت فكرة أن المثقفين يشكلون نخبة تقدمية حميدة الصورة المقابلة للإدانة اليمينية للطبقة الجديدة بوصفها قوة طفيلية تدميرية. إلاّ أن كلا الموقفين أسبغ على المثقف قوة كبيرة في التأثير في مسار الأحداث. وبالنظر إلى الماضي من منظوره اليوم، فإن المرء يُدهَش من الأهمية المبالغ بها التي أسبغت على دور المثقف في الماضي. تبدو الصورة الكاريكاتيرية التي رسمها غولدنر عن نشوء طبقة جديدة من المثقفين اليوم مفارقة لا يمكن فهمها. وكذلك

الإدانـات القويـة لمثقف عصـر التنوير. يواجه المرء بـين الحين والآخر تحذيراً مكرراً من طموح المثقفين إلى تغيير العالم. يحذر أحد المفكرين المعاصريـن المعادين للتنوير: «لا يجدر بنا الافتراض بأننا شهدنا نهاية موضة إعادة ترتيب العلاقـات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ضوء مقتضيات النظريـة»[20]. إلاّ أن مثل هذه التحذيرات تبدو متنافرة بشكل غريب مع المناخ الثقافي لعصرنا هذا.

عـدد قليـل من النـاس ينظر اليـوم إلى المثقـف بوصفـه متعصباً خطـيراً يهدد النسيج الأخلاقـي للمجتمع. لا شـك في أن هناك حفنة مـن المفكريـن المحافظين علـى الجانب الخاسـر من حـروب الثقافة ممـن يعترضون على سلوك الأكاديميـين اليساريين، غير أن تركيزهم ينصبّ علـى الممارسات السياسية في الجامعات وليس على المثقف. في الواقع فـإن هدفهم هو غالباً الإداري الجامعـي الكذوب وليس المفكر. ولا تـزال تسود الأفكار المعادية للمثقفـين هنا وهناك، لكنها تفتقر إلى بـؤرة محورية ولا تحرض أي مناظرة جادة. ومن حيث وجود أي نقاش معاصـر جاد عـن المثقف، فإن الدافـع إليه هو القلق حـول ما حل به. في الماضـي كان سـؤال «أين المثقفـين؟» كان سيُرَد عليـه بالإشارة إلى مختلـف المناطق الجغرافية باريس، برلين، فيينـا، سانت بيترسبيرغ، بلومزبـري، قرية غرينيتش بوصفها مواقع للخمائر الفكرية. أما اليوم فإن الرد سيجد صعوبة بالإشارة إلى أي من هذه الأماكن؛ والجامعات يقطنهـا أشخاص أذكياء رفيعـو التعليم يعلّمون بوصفهـم أكاديميين محترفين وليس بوصفهم مشاركين في الطبقة المثقفة.

قليلاً ما يُمثَّل المثقفون على أنهم قادرون على فعل الكثير. قد يكون أكثر النصوص إشكالية فيما يتعلق بالمثقف في السنوات الأخيرة هو كتاب راسل جيكوب آخر المثقفين. يستكشف هذا الكتاب اختفاء المثقف من الحياة العامة ويحاول تحليل أسباب التأثير المتضائل للمثقف على المجتمع. إن حقيقة ظهور العديد من المقالات الموسومة بـ «ما هو المثقف المعني بالشأن العام؟» يوحي بأن نصفه يشير إلى نوع مهدد بالانقراض. وعندما تطرح أسئلة مثل «من هم؟» و«أين هم؟»، يجدر بنا أن نذكّر أنفسنا بما نعنيه بمفهوم المثقف.

ما الذي يكوّن المثقف؟

يتم تعريف المثقفين غالباً طبقاً لمهنهم. يُشار في بعض الأحيان إلى أن الأشخاص الذين يعملون بأدمغتهم يقومون بعمل فكري، ولذلك ففي المجتمعات الغربية، حيث تتناقص باستمرار نسبة الأشخاص الذين يعملون بأيديهم، فإن ملايين الناس يؤدون عملاً فكرياً. إضافة إلى مرشحين واضحين مثل المدرسين، والمحامين، والعلماء، هناك جيش حقيقي من موظفي القطاعين لعام والخاص الذين يتم توظيفهم للقيام بأعمال ذهنية. غير أن أولئك العاملين في مهن غير يدوية ليسوا مثقفين بالضرورة. كما يجادل رون إيرمان، من المهم التمييز بين أداء العمل الفكري من جهة والمثقفين من جهة أخرى؛ لأن هوية المثقفين «تتشكل حول أنواع من الاهتمامات تختلف عن تلك المرتبطة بالموقع الاجتماعي»[21]. لا يتم تعريف المثقفين طبقاً للأعمال التي يقومون بها،

بـل بالطريقة التي يقومون بها بأفعالهـم، والطريقة التي ينظرون إليها إلى أنفسهم، والقيم التي يعتنقونها.

إن كـون المـرء مثقفاً لا يتعلـق بكيفية كسبـه لرزقه. يجـادل كوسر بـأن المثقفين «يعيشون من أجل الأفـكار ولا يعيشون منها». وتتردد هذه الفكـرة عند إيرمان عندمـا يقول: إنه «يمكن للمثقفـين أن يعيشوا من أفكارهم، لكن ينبغي أن يعيشوا من أجلها أيضاً»[22].

بالرغـم مـن أن فكرة العيش من أجل فكرة يمكـن أن تبدو للقارئ مثاليـة على نحو بائـس، إلاّ أنها كانت المحـرك الدافع لسلوك ملايين النـاس في أثناء القـرون الماضية. ويمكـن أن يقال بالفعـل: إنه مهما كانـت التحفظات التي يمكـن أن تكون للمرء حيال مثـل هذه المثالية، فإنهـا ألهمـت العديديـن لرؤيـة الإمكانـات الإبداعيـة الكامنة وراء الوقائـع الرصينة للحياة اليوميـة. حتى كون المرء خبـيراً أكاديمياً لا يـؤدي مباشرة إلى أن يصبح مثقفاً. كما علق عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديـو: «كي يتمكن المنتجون الثقافيون من اكتساب لقب مثقف، ينبغي عليهم استعمال تجربتهم وسلطتهم المحددة في مجالهم الثقافي الخاص في نشاط سياسي يقع خارج هذا المجال»[23]. من منظور بورديو، فـإن شخصاً كإنشتايـن يمارس سلطته الفكريـة عندما يخطو خارج مجال خبرتـه التخصصي (الفيزياء) ويعلق علـى الشؤون السياسية العالميـة. إن الإحسـاس بالهويـة بالنسبة لهـؤلاء الأشخاص مستمد جزئياً مـن المشاركة في مشروع يتجاوز أي مهنـة أو مصلحة محددة.

يجـادل بومان بأن «المعنى القصدي -لكون المـرء مثقفاً- هو الارتقاء فـوق الانشغال الجزئـي الذي تفرضـه مهنته أو الجنـس الفني الذي يعمـل فيه والمشاركة في القضايا العامة مثل الحقيقة، والحكم والذوق السائد في عصره»[24]. ليس من المفاجئ أن تتمثل إحدى أهم القيم التي يشيد بها المثقفون في التمتع بالاستقلال في حياتهم. اعتقد غولدنر أن الاستقلال يمثل طموحاً جوهرياً بالنسبة للمثقفين، ملاحظاً أن «أعمق بنيـة في ثقافة المثقفين وإيديولوجيتهم هي افتخارهم باستقلالهم»[25]. إن رغبـة المـرء في امتلاك حرية لفعل طبقاً لمعتقداتـه وأفكاره تشكل واقعـاً قوياً في سلـوك المثقف. ولهـذا السبب يعيش المثقفون في كثير مـن الأحيان في حالة من التوتر الإبداعـي حيال القواعد والقيود التي تفرضها المؤسسات السائدة على الحياة اليومية.

كي يشعر المرء ويتصرف بوصفه مثقفًا، فإن ذلك يتطلب على الأقل ابتعـاداً ذهنياً عن أعـراف الشؤون اليومية وضغوطهـا. لاحظ إيرمان «كلما كان العمل الفكري محكوماً بقـوى، وقواعد، وإجراءات خارجية، ومشرفـين ومـا إلى ذلـك، تضـاءل إحساس المـرء بأنه مثقـف[26]. إن تطلعـات المثقف يدفعها فهم بأن الأفكار لا يمكن تطويرها طبقاً لجدول معين أو بموجـب أوامر وتعليمات مؤسسة معينـة. وثمة إدراك عام بأن درجـة من الابتعاد أمر جوهري لاكتساب منظور أوسع وتحقيق الإبداع. يمكـن للمثقفين أن يكونوا موظفين في مؤسسـات، لكن إذا بقي خيالهم وعملهم محصوراً في هذه المؤسسات فإنهم سيصبحون ببساطة خبراء

وتكنوقراط. جادلت دراسة أميركية مهمة نشرت في ستينيات القرن العشرين أنه إذا انغمس المثقفون كلياً في «المؤسسة»، فإن ذلك «سيعني نهاية المثقفين، كما عرفهم التاريخ الحديث». وحذر المؤلف من أن مثل هذا التطور لن يخدم مصالح أمريكة؛ لأنه «فقط إذا تمكن المثقفون من المحافظة على ذكاء نقدي، وحافظوا على مسافة من المهام اليومية، وطوروا انشغالاً بالقيم الكلية بدلاً من القيم الطارئة والعادية، يمكنهم عندها أن يخدموا المجتمع بشكل كامل»[27].

حتى في أفضل فترات التطور الثقافي، فإن علاقة المثقفين بالوضع القائم تكون علاقة متوترة. هناك بالطبع مثقفون سلطويون يخدمون الطغمة المسيطرة. غير أن هؤلاء يتحولون بسرعة إلى ناطقين أيديولوجيين واعتذاريين ويغتربون عن الأنشطة الفكرية.

إنهم يتنازلون بسرعة عن سلطتهم بوصفهم مثقفين. يصعب تخيل كيف يمكن دفع العمل الفكري إلى الأمام بطريقة امتثالية بالكامل. المثقفون المحافظون والراديكاليون على حد سواء يفسرون العالم عبر عدسة المبادئ التي تكون في حالة توتر دائم مع الشؤون العملية للمجتمع. تنتقد إحدى المجموعات الحالة السائدة للأمور لدفع المجتمع إلى الوراء، في حين تحاول المجموعة الأخرى تغيير بعض وجوهه.

يتطلب الدور الإبداعي للمثقف الابتعاد عن أي هوية أو مصلحة محددة. لقد استندت سلطة المثقف، منذ مطلع الحداثة، إلى الادعاء بأنه يعمل ويتحدث نيابة عن المجتمع بأسره. يمكن النظر إلى المثقف

بوصفه تشخيصاً لإرث التنوير، وقد سعى تقليدياً إلى تمثيل وجهة نظر العالمية. يلاحظ بيير بورديو أن المثقفين «كوّنوا أنفسهم على النحو الذي هم عليه عبر اعتناقهم للعالمية ورفضهم للخصوصية»[28]. وعبر تحدثهم دفاعاً عن القيم التي تتجاوز التجربة الخاصة العقل، العقلانية، العلم، الحرية يعيد المثقفون التأكيد على قوة المشروع التنويري واستمراريته.

بصرف النظر عن المزاج الفردي، فإن المفكرين يُفرض عليهم في كثير من الأحيان تحدي الأعراف والآراء المعاصرة. ويتم احتواء احتمالات مثل هذا الصراع داخل المنظور العالمي للقيم والمفاهيم، الذي يتناقض مع الأعراف والتقاليد التي تبنيها مجموعات معينة على نحو براغماتي كي توجه حياتها. كما لاحظ إدوارد سعيد فإن العمل على أساس مبادئ العالمية أمر ينطوي على مخاطرات. «العالمية تعني أن يأخذ المرء المخاطر من أجل المضي إلى ما وراء أشكال اليقين السهلة التي توفرها لنا خلفيتنا، ولغتنا، وقوتنا التي تحجب عنا في كثير من الأحيان الآخرين»[29]؛ ولأن المثقفين ذوي الطبيعة العالمية يطرحون في كثير من الأحيان أسئلة مقلقة حول الأعراف والافتراضات السائدة، ينظر إليهم على أنهم لا منتمون عالميون غير وطنيين. ويشكل نقد أورويل للمثقفين الذين يخجلون من قوميتهم نموذجاً لهذا المنظور[30]. إن الفرد الذي يحتفظ بمسافة عما حوله، والذي لا يمتثل للأعراف السائدة، كان جزءاً من الشكل النمطي لمثقف القرن العشرين.

لا يعتنق كل المفكرين المنظور السياسي والفكري لحركة التنوير. لقد تميّز المفكرون المحافظون على مر السنين بعدم استساغتهم لقيم

التنوير. لكن مجرد سعيهم للدفاع عن نسختهم من التراث ضد مزاعم التنويـر، كان يحتم عليهم تجاوز تجربتهـم المحددة وتبني منظور أكثر عالميـة. إن نقدهـم هو نتـاج للتنوير بقدر مـا يشكل التنويـر موضوعاً لضغينتهم. إن المثقفين المحافظين هم نتاج للتنوير تماماً كما نظراؤهم الأكثر راديكالية.

أن يكـون المرء مثقفاً يعني أن ينخـرط اجتماعياً. يصعب على المرء أن يعيش من أجـل الأفكار، ولا يحـاول أن يؤثر في مجتمعـه. والأمر لا يتضمن فقط الانخراط في النشاط الذهني الإبداعي، بل أيضاً افتراض المسؤوليـة الاجتماعية واتخاذ موقف سياسـي. لا يميل كل المثقفين إلى الانخراط الاجتماعي، غير أن المثقفين بوصفهم مجموعة ينجذبون إلى الحياة السياسية. يبين ريجيس ديبراي في دراسته للمثقفين الفرنسيين أن ما يعرّف المثقف ليس مستواه التعليمي بل «مشروع التأثير في الناس». ويصف ديبراي هذا الاتجاه بوصفه مشروعاً أخلاقياً ذا طبيعة سياسية في المقـام الأول[31]. وهـذا المشـروع ليس بالضـرورة مشروعـاً سياسياً حزبياً، بل مشروع مستعد للانخراط في معركة لكسب العقول والقلوب.

ثمـة تعريفات عديـدة للمثقفين. يوصفـون أحياناً بأنهـم المدافعون عن المعايـير الثقافية، وأنهـم مجموعة من النقـاد والمنشقين الأبديين، وبوصفهـم ضمير المجتمع. يعـرف لويس كوسير المثقفـين بأنهم «رجال لا يبـدو أنهم يرضـون ألبتَّة عن الأشياء كما هـي». إلاّ أنه يفهم أن أكثر الطـرق إثمـاراً في فهم المثقفـين هي تلك التـي تتعلق بعـالم الأفكار[32]. يعتقـد العديد من المراقبـين أن أحد الملامح المميـزة للمفكر هي قدرته

على الانخراط في القضايا الأوسع لعصره، يجادل بومان بأن «المعنى القصدي لكون المرء مثقفاً يتمثل في الارتقاء فوق انشغال المرء الجزئي بمهنته أو الجنس الفني الذي يمارسه والانخراط في القضايا العامة مثل الحقيقة، والحكم والذوق السائد[33]. وطبقاً لإدوارد سعيد فإن المثقفين يضطلعون بدورهم عبر تمثيل وجهة نظر جمهور أوسع: «أنا أجادل بأن المثقفين هم أفراد يضطلعون برسالة في فن التمثيل، سواء كان ذلك عبر التحدث، أو الكتابة، أو التدريس، أو الظهور على التلفاز[34]. يقدم سيمو ليبسيت أحد أكثر تعريفات المثقف بساطة وفائدة. طبقاً لليبسيت، فإن المثقفين هم «كل أولئك الذين يبدعون، ويوزعون، ويطبقون الثقافة، أي النظام الرمزي للإنسان، بما في ذلك السفن، والعلم والدين»[35] مهما كان التعريف الذي نفضله، فإن كون المرء مثقفاً ينطوي على علاقة حميمة بالانشغال والأفكار وبالحقيقة.

لا يعتنق كافة المثقفين بالطبع الفلسفة نفسها أو وجهة النظر السياسية نفسها. إنهم يعيشون من أجل أفكار مختلفة. لكن بالرغم من الاختلافات التي قد تكون أحياناً مريرة وواسعة، فإن المثقفين تحدوهم رغبة مشتركة بالتأثير في العالم. إن لديهم، على وجه الخصوص، التزاماً مشتركاً بأن يكونوا صوتاً ناقداً للحقيقة كما يرونها. جادل المعلق الاجتماعي الأميركي البارز سي رايت ميلز أن سياسة المثقف هي أولاً وقبل كل شيء «سياسة الحقيقة». وتبنى وجهة النظر القائلة: إنه عبر البحث عن الحقيقة، فإن المثقف يحاسب

السلطات الحاكمة. «مهما كانت الأدوار الأخرى للمثقف، فهو حتماً بين أولئك الذين يطرحون أسئلة جادة، وإذا كان مثقفاً سياسياً، فإن أسئلته تستهدف الفئات الحاكمة»[36].

ما من شك في أن صورة المثقف كما تم تقديمها آنفاً تقدم نسخة مثالية عن عمل هذه المجموعة. طوال القرون الثلاثة الماضية، لم يكن معظم المثقفين يسخّرون كل وقتهم للجهاد من أجل الحقيقة. كغيرهم من الناس، فإن المثقفين كثيراً ما يساومون، وينسحبون تحت الضغط ويمتثلون للمناخ الثقافي السائد. يمكنهم أحياناً أن يتخلوا عن استقلالهم مقابل حياة سهلة، وفي بعض الأحيان تكون فاعليتهم قناعاً يغطي لهاثهم لتحقيق المصلحة الشخصية. لكن بغضّ النظر عن خصائص بعض المثقفين ومسيرة حياتهم الشخصية والمهنية، فقد أدوا بوصفهم مجموعة دوراً مهماً في مساءلة الأعراف والتقاليد، وفي رفع حساسية المجتمع حيال المثل والقيم التي ساعدت في دفع التقدم الإنساني إلى الأمام.

اليوم يرتبط الدور المتمثل في الانشغال النقدي بالأفكار في كثير من الأحيان بما يوصف أحياناً بـ «المثقف التقليدي». إن حقيقة استعمال كلمة «تقليدي» في التعريف يشير إلى أن وجود هذا النوع من الأشخاص أصبح الآن عرضة للتشكيك. كما يتم تقديم الحقيقة في كثير من الأحيان على أنها تفتقر إلى السلطة، حيث إن الأشخاص الذين يدّعون أنهم يبحثون عنها يعدّون مفارقة تاريخية لا حاجة لها. ولهذا السبب فإن الحاجة إلى دور «المثقف النقدي التقليدي» تتعرض للتشكيك. حتى المعلقين المتعاطفين مع ممارسة السلطة الفكرية يعتقدون أن «دورها

التقليدي تآكل». تقول كاترينا فريد جونسدوتير، وهي معلقة بارزة على الموضوع: «قد يكون علينا إعادة تقييم معنى وأهمية فئة المثقف التقليدي نفسها، إضافة إلى تحليل ظروفها المتغيرة»[37].

إذاً، ما هي التأثيرات التي جعلت المجتمع المعاصر بيئة غير مناسبة لبقاء ما يسمى بالمثقف التقليدي؟

المجتمع المعاصر والمثقف

لقد تمثلت بعض التغيرات البنيوية المرتبطة بأفول نجم المثقف التقليدي في التأثير المتنامي للسوق على الحياة الفكرية، ومأسسة وحرفنة الحياة الفكرية، والقوة المتنامية لوسائل الإعلام وتلاشي الفضاء العام المتاح لممارسة الاستقلال. يدعي العديد ممن كتبوا حول الموضوع أن القوة الدافعة الرئيسة وراء تحول المشهد الفكري، تتمثل في التوسع الكبير للجامعات. طبقاً لهذا المنظور، فإن النزعة الاحترافية في الجامعات وجهت ضربة خطيرة لاستمرار حيوية الحياة الفكرية[38].

لقد كان صعود نجم الخبراء والمهنيين سمة مهمة من سمات المجتمعات الرأسمالية لبعض الوقت. منذ خمسينيات القرن العشرين، أصبحت هذه النزعة واضحة جداً، وتمارس الآن نفوذاً كبيراً حول كيفية إدراك السلطة. يجادل أولئك الذين يصورون المثقفين «كطبقة جديدة» بأن الاحترافية أصبحت تؤدي دور الأيديولوجيا التي تميّز النخب الحاكمة. من هذا المنظور، يمكن الخروج باستنتاج مفاده أن المثقفين أصبحوا أكثر قوة مما كانوا في العصور السابقة. تم دفع هذه المقاربة بشكل منهجي في السبعينيات من قبل غولدنر الذي ادعى أن

«الاحترافيـة تقوم وبصمت بتنصيب الطبقة الجديدة بوصفها نموذجاً للسلطـة الفاضلة والمشروعة التي تـؤدي رسالتها بمهارة تقنية مسخّرة نفسها لخدمة المجتمع بشكل عام»[39].

مـن المشكـوك فيه أن صعـود السلطة الاحترافية قـد عزز من نفوذ المثقفـين. يتركـز العمـل الذهنـي للشخص الاحـترافي على تقـديم الخدمـات، وليس على ترويـج الأفكار، من حيث إن الأفـكار تؤدي دوراً في إنجـاز مهمـة احترافية، فإنهـا لا تتمتع بالقيمة لذاتهـا، بل كوسيلة مـن أجل تحقيقهـا. إن ما يعرّف المثقفـين ليس أداء العمـل الفكري أو أي وظيفـة اقتصاديـة محددة. يتكون المثقفون عـبر علاقتهم بالمجتمع وتطويـر الأفكار. وبغض النظر عن مهنهـم، فإنهم لا يمارسون دورهم بوصفهم مثقفين عبر وظائفهم.

علـى النقيض من نظريـة الطبقة الجديدة، فـإن توسع الاحترافية قـد يوجـد عقبات جديـدة أمـام ممارسـة الأنشطـة الفكريـة. تروج الاحترافيـة قيماً وأنماط سلوك قد تكون غير منسجمة مع قيم وأنماط سلـوك المثقـف. إن أنشطة مـن قبيل تقديم نقد للوضـع الراهن، وأداء دور ضميـر المجتمـع، أو السعي لاكتشاف الحقيقـة بصرف النظر عن التبعات، ليست الأنشطة التـي يتضمنها عمل الشخص الاحترافي. كما تعلق كاتريـن فريدجونسدوتير، فإن الخبير الاحـترافي قد يكون مثقفاً نقديـاً، لكـن «لا يتوقع منـه بالتأكيد أن يتصرف على هـذا الأساس في دوره بوصفه خبـيرًا»[40]. وبالفعل، فإن أنماط السلوك المرتبطة بالخبير الاحـترافي تختلف تمامـاً عن الطريقة التي يعمل بهـا المثقفون. ولذلك

يعتقد العديد ممن كتبوا حول هذا الموضوع أن الاحترافية تمثل التهديد الأهم الذي يواجه المثقف. إن عدم التوافق بين روح الاحترافية وروح المثقف عبّر عنه إدوارد سعيد بقوله:

> ما أعنيه بالاحترافية أن يفكر المرء في عمله مثقفًا كشيء يقوم به لكسب رزقه، بين الساعة التاسعة والساعة الخامسة وإحدى عينيه على الساعة، والثانية على ما يعد سلوكاً سليماً، وألاّ يهز المركب، وألاّ يخرج على القيود وأنماط السلوك المقبولة، وأن يجعل نفسه قابلاً للتسويق والتقديم، ومن ثمّ ألاّ يكون إشكالياً ولا سياسياً وأن يكون «موضوعياً»[41].

حالما يتحول العمل الفكري إلى عمل احترافي، فإنه يفقد استقلاله وقدرته على طرح الأسئلة الصعبة على المجتمع. وبدلاً من ذلك فإنه يكتسب وظيفة إدارية وتكنوقراطية.

المفارقة هي أن تنامي الطلب على العمل الفكري بحد ذاته أوجد عقبات جديدة أمام ممارسة النشاط الفكري. لقد شجع ازدهار سوق الأفكار حرفنة العمل الفكري. وكما لاحظ إيرمان، فعبر نقل العمل الفكري من هامش المجتمع إلى مركزه فإن السوق اكتسب تأثيراً غير مسبوق على الحياة الفكرية. وكانت نتيجة هذه العملية هي مأسسة العديد من الوظائف المرتبطة بنشاط المثقف.

لقد أصبحت المؤسسات والعمليات التي أدت دائماً دوراً تكوينياً بالنسبة للمثقف -الجامعة، الفضاء الأدبي والسياسي العام، وخصوصاً فيما يرتبط بالصراعات الثقافية والطبقية- في المجتمعات الحديثة أكثر مأسسة وحرفنة وتجارية. حتى دور الناقد الاجتماعي، وهو دور مركزي للدور التقليدي للمثقف، تمت مأسسته إلى حد أصبح فيه «المثقف» ضيفاً دائماً على برامج المقابلات التلفزيونية والصفحات «الثقافية» للجرائد الجادة[42].

وهكذا، وبالرغم من أن العمل الفكري أصبح أكثر حضوراً مما كان في الأزمنة السابقة، فإن هذه الوظائف تؤديها المؤسسات وموظفوها المختصون ولا يؤديها المثقفون. هؤلاء المثقفون الذين يحاولون إيصال أفكارهم عبر وسائل الإعلام يتحولون في كثير من الأحيان إلى «رؤوس متحدثة» في خدمة البرنامج الذي يظهرون فيه. وغالباً ما يتم قبولهم عندما يقدمون العبارات الموجزة الملفتة، إضافة إلى التسلية والترفيه.

إن لمأسسة العمل الفكري أثراً كبيراً على الطريقة التي تتفاعل بها الأفكار مع المجتمع. إن سلطة المثقفين، عندما يكونون متخصصين وخبراء، وحتى عندما يكونون خبراء أكاديميين، لا ترتكز على جودة أفكارهم، بل على خبرتهم. تصبح اللغة التي يتحدثونها تقنية وتخصصية، وليست عامة يفهمها جمهور العامة. تعكس اللغة الجديدة للخبير الأكاديمي أسلوب حياة مسخَّر لتخصص ضيق. وعبر هذه العملية فإن محتوى النشاط الفكري بحد ذاته يتغير. لقد لفتت

فريدجونسدوتير النظر إلى كيف أن أنشطة مثل النقد الأدبي أصبحت تقريباً «نشاطاً احترافياً يقتصر في الغالب على أشخاص مدربين أكاديمياً». وهي تزعم بأن هذا قد غير شكل هذا النشاط ومحتواه، بحيث إن الناقد الأدبي الذي لا يتمكن من متابعة الأزياء الجديدة في النقد الثقافي لا يتوقع أن يستمر طويلاً في مهنته[43].

لقد أدى التوجه الواضح نحو حرفنة الحياة الفكرية ببعض الذين يكتبون في الموضوع إلى التشكك في مدى إمكانية استمرار دور المثقف المستقل. كما يشار إلى أن ضغط السوق يؤثر بشكل مباشر على مجال الأفكار. إن مستوى رفيعاً من التخصص يشجع على أن تصبح المعرفة أكثر تشظياً، مما يضعف من قدرة المثقف على التفاعل مع المجتمع بكليته. في تطرقه لهذا الموضوع، يشير إيرمان إلى «السلطة التي تمارسها قوى السوق في تحديد مستوى الإنتاج الثقافي»[44].

ما من شك في أنه يمكن أن يكون لسلطة قوى السوق تأثير كبير على محتوى الإنتاج الثقافي. لكن ليس السوق هو الذي أدى الى تراجع المثقف. في العصور السابقة، ازدهر المثقفون عبر رد فعلهم ضد السوق، أما اليوم فإنهم يحاولون على الأرجح تحقيق طموحاتهم عبره. إن فكرة أن المثقفين كانوا دائماً ضحية ظروف خارجة عن سيطرتهم تتجاهل حقيقة أنهم كانوا دائماً حريصين على اقتناص الفرص المتاحة عبر مأسسة العمل الفكري. لقد أدى المثقفون دوراً رئيساً في تشجيع التخصصات والمجالات الأكاديمية المستقلة. لقد تم التخلي عن المثالية التي حلت محلها البراغماتية والمقاربة الأدائية للحياة.

لقد تم الاستغناء عن الاستقلال الفكري مقابل المطالبة بالاعتراف والقبول المؤسسي. وهذا التطور لافت على نحو خاص في المناظرات التي تتناول غياب المثقف العام. لقد تحولت المناظرة التي بدأت بوصفها محاولة لتفسير تراجع الاستقلال الفكري إلى مطالبة من قبل بعض المشاركين فيها بأن تساعد المؤسسات والهيئات العامة في إنقاذ المثقف العام من الانقراض. وقد استجابت بعض الجامعات الأميركية إلى هذه المخاوف كما لو كانت فرصة في السوق، فأطلقت برامج للدراسات العليا صممت لتدريب المثقفين العامين. ودعا آخرون المؤسسات العامة لفعل المزيد لتشجيع نشاط المثقف للتعبير عن هذا الاتجاه، وقد كتب أكاديميان أميركيان عن هذا السلوك قائلين: وأخيراً، ندعو إلى مزيد من الاعتراف المؤسسي والمادي بهذه الأشكال من العمل الفكري العام. وهذا يتضمن تعزيز العمل العام وإسباغ قيمة كبيرة عليه. على سبيل المثال، بالنسبة لأولئك الذين يسعون للتعلم في مجال الخدمة العامة، يمكن للمؤسسات أن تقدم أو تطلب التدريب أو منح الشهادات، وأن تشرك أعضاء الهيئة التدريسية كافة في شكل من أشكال تعلم الخدمة، وأن تمنح أولئك الذين ينغمسون في العمل العام مزيداً من الإجازات أو تخفف عنهم بعض الأعباء التدريسية[45].

إن المطالبة بالتصديق على العمل الفكري العام تشير الى مدى تراجع فكرة الاستقلال الفكري لتحل محله روح الاحترافية. عندما تصبح الهوية الفكرية معتمدة على القبول المؤسسي، فإنه لا يعود هناك شيء مشترك بينها وبين التطلع الكلاسيكي نحو الاستقلال الفكري.

مـن الصعب تفسير الذهنية «الاعتمادية» لمفكر اليوم المحترف على أنهـا نتيجـة مباشرة لسلطـة قوى السـوق. لا شك في أن توسـع السوق أمـام المحترفين والخبراء قد أثـر في التطورات، لكنه لا يمكن أن يفسر الاستعداد الـذي أظهره الناس في تبني أنماط سلوك لا تنسجم مع دور المثقـف التقليدي. من أجـل فهم سبب حدوث ذلك، مـن الضروري أن نبحـث عـن تفسيرات تتجـاوز التغـيرات البنيوية التي تؤثـر في القيام بالعمل الفكري.

تراجع قيمة دور المثقف

بالرغم من أن للتغيرات التي تطرأ على بنية المجتمع مضامين مهمة فيما يتعلق بفهم نهاية المثقف، فإنها لا تفسر التراجع في قيمته. في وقت تزايـد فيه الطلـب بشكل كبير على التعليم، والمعرفـة، والعمل الفكري، لماذا تظهـر الكثير من علامات الاستفهام على بقـاء واستمرار المثقف النقدي التقليدي؟ مهما كانت الإجابة عن هذا السؤال، فمن الواضح أن معظـم الإسهامات المقدمة في هذا الموضوع تسلم بزوال المثقف النقدي التقليدي، وتنشغل بدلاً من ذلك في محاولة إيجاد دور جديد للمثقف.

يعتقد على نطاق واسع أنه فيما يسمى بحقبة ما بعد الحداثة، حيث تعرضت الخصائص الرئيسة للتنوير للمساءلة، فإن دور المثقف النقدي تراجـع على نحو حـاد. حيـث إن العديد مـن المُثُل المرتبطـة بممارسة السلطة الفكرية - البحث عـن المعرفة، وتحكيم العقل أصبحت عرضة للتشكيـك، فـإن عمل المفكـر فقد بعض جاذبيته الثقافيـة. إن تراجع الإيمان بقوة التفكير العقلاني أضعفت إلى حد بعيد مكانة المثقف. لقد

حل محل النظرة الشاملة الى العالم، التي كان يعتقد أنها تؤثر في تفكير المثقف الكلاسيكي، الاعتقاد أن مثل هذه النظرة الواسعة تتجاوز قدرة الخيال البشري.

ونتيجة لذلك فقد أعطي للمثقف دور أكثر تحديداً مما كان له في الماضي. حتى أولئك الذين يحتفظون بإطار مرجعي إيجابي للمثقف النقدي يبدو أنهم يعتقدون أن هذه المرجعية يمكن أن تستمر فقط إذا عدلت بشكل جذري. يكتب إيرمان: «في حين أن سياقات نشوء هؤلاء المثقفين قد تكون ضاقت بشكل كبير، ومن ثمّ تضاءل نطاق الإمكانات المتاحة لهم، فإن التقاليد التي تكوّن المثقف ما زالت أكثر من مجرد ذكرى متلاشية». لكن وبالرغم من المحاولات التطمينية بأن التقاليد المرتبطة بالمفكر «أكثر من مجرد ذكرى متلاشية،» يخلص إيرمان إلى رؤية متواضعة ومتشائمة الى حد بعيد لمستقبل العمل الفكري. «على الرغم من أن معناه تم تغييره بشكل شبه كامل نتيجة لما أطلق عليه الظرف ما بعد الحداثي، فإن مفهوم المثقف لا يزال يقدم مصدراً حياً يحتمل أن يتم اللجوء إليه كنقطة استقطاب للأجيال القادمة من المنشقين».

إن الاعتقاد أن «الظرف ما بعد الحداثي» قد حول فجأة النشاط الفكري بشكل جوهري كان قد أحدث أثراً قوياً على الطريقة التي يفكر بها المفكرون في أنفسهم وفي أنشطتهم على عكس مفكر عصر النهضة الذي احتفى بالرؤية العالمية، فإن مفكري اليوم أكثر ميلاً للاحتفاء

بالهويـة ذات الخصوصية. لدينا اليـوم مثقفون إنكليز، ومثقفون سود، ونسويـون، ومثليـون، ويهود. ونتيجة لذلك، لا تستنـد سلطة المثقف إلى القدرة علـى تمثيل الحقيقة، بل إلى القدرة علـى توكيد هوية مجموعة محـددة أو تخصص محـدد. لا ينبغي أن ينظر الى التحول من التركيز العالي إلى التركيز الخصوصي بوصفه مجرد تنويع على سلّم. إنه ينطوي على إعادة تعريف جوهرية للطموح الفكري من محاولة المضي الى أبعد من التجربة الخاصة الى الرغبة في توكيدها[46]. هذا التوكيد تطغى عليه موجبات شديدة المحافظة ومعادية لأي مساءلة نقدية للمجتمع.

يجـادل بومـان بأن إحدى تبعـات ما بعد الحداثـة تتمثل في التحول الجوهـري لـدور المثقف من مشـرّع الى مفسّـر. يطلـق المثقفون، عبر دورهـم بوصفهم مشرعين، مقـولات مؤثرة تحدث آثـاراً مباشرة على تشكيل الـرأي العام. أما بدورهم بوصفهـم مفسرين ما بعد حداثيين، فإن المثقفين يرون أن مهمتهم تتمثل في تيسير التواصل ترجمة المقولات التـي تصـاغ داخل تـراث مجتمعي معـين، بحيث يكونـون مفهومين في منظومة معرفية تستند إلى تراث آخر[47].

لقـد دافع ميشيل فوكو بقـوة عن تضييق نطاق سلطـة المثقف؛ فقد جـادل بأنه وبحكم عـدم وجود حقائق شاملة، فـإن المثقفين لا يمكنهم أن يدّعـوا بأن وظيفتهم هي نقل الحقيقة الشاملة. وادعى بأنه لا يمكن للمثقفـين أن يطمحـوا لأن يكونوا مثقفـين شاملين، بـل «محددين». لا يتوقع مـن المثقفين المحددين أن يطلقوا مقـولات واسعة حول مشكلات

العالم – بل بوسعهم تسخير عملهم للمجالات التي يمتلكون فيها الخبرة الأوسع، وبذلك يحققون نتائج ملموسة.

تعكس الآراء التي يعتنقها أمثال بومان وفوكو تراجع معنويات معتنقي الإرث التنويري. لكن في حين يعترف بومان بأهمية أن يتمكن المفكرون من دعم «عملية التنوير»، فإن فوكو مبتهج بموت المثقف الشامل: بالنسبة لفوكو وغيره ممن ينجذبون الى منظور ما بعد الحداثة، فإن الحقبة الحالية في الحياة الفكرية تمثل فعلياً تقدماً رئيساً على الماضي[48]. وغالباً ما يصور كبح جماح الطاقة الفكرية على أنه تسوية مسؤولة وبراغماتية مع متطلبات عصر ما بعد الحداثة، كما أن هناك إحساساً ملموساً بالرضى عن التسويات لدى مفكري ما بعد الحداثة الممتثلين لمتطلبات العصر.

المفكر الممتثل

كثيراً ما كانت تنتاب المثقفين في الماضي مخاوف إزاء محاولات تقويض مساعيهم وأنشطتهم. وكثيراً ما كان التدخل السياسي الذي يستهدف الاستقلال الفكري والضغوط التجارية للسوق عرضة لانتقاد الإنتجلنتسيا الراديكالية. أما اليوم فإن الأصوات الراديكالية باتت أقل ميلاً للانشغال بالهجمات الموجهة لحرية التعبير، والرقابة والمعركة من أجل الأفكار. في حين أن النقد الموجه للمثقف النقدي التقليدي يصدر بشكل رئيس عن الدوائر السياسية اليمينية، فإنه بات من المرجح أن يصدر اليوم عن اليسار. وهكذا فإن مقدمة لمجموعة

مـن المقالات نشـرت في كتاب مؤخـراً تفرض «المفهوم الأقـدم والأقل مصداقية أخلاقية للمثقف»[49].

في أزمنـة سابقـة، كان المثقفـون يواجهـون المدافعين عـن التقاليد والتراث مطالبين بالتغيير وإعادة تشكيل الحياة الثقافية. ولذلك السبب فقـد كانت أعلى الأصوات المعارضـة للمثقفين تصدر عن المدافعين عن التقاليـد. أما اليوم فلم يعد ممثلو النزعة الثقافية المحافظة هم الذين يحتفـون بالوضـع القائم ويدافعـون عنه. علـى العكس، فـإن المثقفين اليمينيـين هـم الذين يعبّـرون في كثير من الأحيان عـن صدمتهم مما يجـري في الحياة الثقافية ويعبرون عن رغبتهم برؤية تغيرات مؤسسية وثقافيـة جوهرية. إن الدفـاع عن المؤسسات الثقافيـة والتعليمية الذي يضطلـع بـه تقليديـاً اليمـين السياسـي، تم تبنيـه من قبـل المحترفين والخبراء العاملين في المجال الفكري.

إن مزاجـاً عميقاً مـن المحافظة الجديدة يصبغ المـداولات المتعلقة بـدور المثقـف. لم يكن هناك أي مـدة، منذ مطلع الحداثـة، شعر فيها النـاس بهذا القدر مـن القبول بالأدوار التي تـوزع عليهم. ويتضح هذا المنـاخ من الامتثـال على نحو خاص بين الأكاديميـين المحترفين. إن أي إيحـاء بأن الحياة الفكرية تواجه الاستنـزاف، أو أي إحساس بالدونية لمـا وجد في حقب سابقـة، يُرفض بقـوة على أنه محاولـة مقيتة للعودة إلى عصـر أسطـوري سـادت فيه النخبـة الملهَمة. وطبقـاً لإحدى هذه المطالعـات، «بالنسبـة للمثقفين، فمن المؤكد أنه لا داعـيَ لليأس، حيث إن الحيـاة التي تستمر في الجامعة، وأساليب التدريس التي نطبقها بين

الآثار، مختلفة وأكثر حيوية وصرامة مما حاولت أن تقنعنا به مختلف الأساطير القائلة بسقوط الحقيقة وموت المثقف». ولدى كاتب هذه الكلمات حتى بعض فتات التطمينات التي يقدمها لأولئك القلقين من تهميش تراث التنوير، ويكتب: «بالنسبة لأولئك الذين يفهمون ذلك، فإن قيم التنوير ما زالت توفر بقع ضوء نختار طريقنا على هديها»[50]. يبدو أن العثور على «بقع ضوء» لتجنب التصدي لتراجع دور المثقف هي الاستجابة السائدة في معالجة هذه المشكلة.

بالسير على خطى فوكو، فإن العديد من المسهمين في هذه المناظرة يعبّرون عن بهجتهم لتراجع قيمة المواقف التنويرية في الوقت الحاضر. يعبر آندرو روس عن رضاه؛ لأن الأجندة لم تعد تطغى عليها النظرة العالمية الشاملة - بالنسبة لروس، فإن «تلاشي المثقف العالمي الشامل» يمثل خطوة إيجابية إلى الأمام. ويحتفظ بازدرائه لأولئك الذين ما زالوا يتوقون إلى الثقافة الفكرية لحقبة سابقة، ويشجب ما يصفه «بالإجماع الرجعي لليسار واليمين، وكل منهما مخلص بثبات لسرد الانحطاط الخاص به». يرفض روس تهم التشظي و«الأكدمة» التي تطلقها أصوات يسارية تقليدية، كما يرفض التحذيرات من التردي والانحطاط الأخلاقي التي يطلقها عرافو اليمين»[51]. طبقاً لهذه النظرة فكل شيء بخير. ما يعكر صفو هذا الوضع المثالي هم فقط أولئك الذين ينتقدون حرفنة الحياة الأكاديمية.

تستند النظرة الثقافية الامتثالية السائدة اليوم إلى افتراض أن السلطة التقليدية للمثقف لم تعد قابلة للحياة. يجادل مُعِد مجموعة

مـن المقالات حـول «المثقف العـام»: «بالنسبـة لأولئك الذيـن ينظرون بجديـة إلى التشخيص القائل: إن الحيـاة العامـة في الديمقراطيات الغربية لم تعد من النوع الذي يسمح بالادعاء بالسلطة العامة للمثقف، وبالانحطـاط، مهمـا كان لونه السياسـي، يشكل في الواقـع استعراض مواقـف أكثر مما يوفـر إجابات»[52]. كثـيراً ما يستقطـب القلق العميق حيـال الورطة التـي تعيشها الحياة الثقافية الإجابـة المتراخية، وهو أن الأمـور على ما يرام في الوسط الأكاديمي. وكثـيراً ما يُرفض التشكيك في الممارسـات الفكرية والتعليمية المعاصرة على أنه حنين لعصر ذهبي مضى. في الواقع فإن هذا الدفاع المشوب بالرضى عما هو قائم أمر غير مسبـوق في التاريخ الفكري للحداثة. في القرن التاسع عشر، كانت حتى الشريحة الأكثر محافظة من الإنتلجنتسيا تنتقد المناخ الثقافي السائد، وكانت كل شريحة من الإنتلجنتسيا تسعى لتغيير وتحسين وتحويل وحتى إطاحـة العالم الذي يواجههـا. إن التباين بين هذا الـتراث من التوهج الثقافي من جهـة والمواقف المستكينة التي تظهر اليوم، من جهة أخرى، يبرز الملامح المميزة للحياة الفكرية في مطلع القرن الحادي والعشرين.

تتمثل إحـدى المصادقات المنهجية على الامتثـال الفكري في كتابات بروس روبينز، أستـاذ الأدب الإنكليزي في جامعة راتغرز. يظهر روبينز مؤيداً قوياً للاحترافية الأكاديمية؛ لأنه يعتقد أنها أوجدت مناخاً يرحب بالأصوات الجديدة للأقليات[53]. يدعو روبينز إلى الاحترافية الأكاديمية علـى أساس أن اليسار الثقافي ازدهر واستفـاد من هذه البيئة. ويتبجح قائـلاً: «يعود الفضل إلى رد الفعل الـذي شهده عصر ريغن والذي تعلم

الناس عبره أن لليسار حضوراً قوياً في الحياة الثقافية الأميركية - بغض النظر عن إيجابية ذلك الحضور أو سلبيته. كما يتبجح روبينز «بالإنجازات الثقافية والمؤسسية لليسار» في الجامعات[54]. إن روبينز لا يشيد فقط بنجاح اليسار في «ترسيخ نفسه في داخل المؤسسات التعليمية والثقافية الأميركية منذ ستينيات القرن العشرين»، بل إنه يقلل من قيمة الإرث الذي تركه المثقفون «القدامى» و«السجل المروّع» لسلوكهم[55].

بالرغم من أن روبينز يشير باستمرار الى الانتصار المفترض لليسار الثقافي، فإن ما يصفه بالفعل هو أن الأكاديمي المحترف حل محل رسالة المثقف. إن عدم إبدائه القلق حيال تراجع استقلال المثقف يوازيه تكيُّف براغماتي مع متطلبات المأسسة الفكرية. ومن هذا المنظور، فإن الحط من قيمة الاستقلال الفكري يعد ضربة إيجابية موجهة للنخبوية العتيقة. يكتسب المثقف الجديد سلطته من مؤسسته، ولا يتطلب إحساسًا بالاستقلال. لكن بالطبع فإن الأكاديميين لا يمتثلون جميعاً لمأسسة الحياة الثقافية، ويتبنون الهوية الامتثالية للمفكر الأليف. كما أن العديد من المثقفين المؤسسيين يتوقون إلى إحراز درجة أكبر من الاستقلال عن الضغوط المؤسسية. ينزع معظم الأكاديميين لأن يكونوا احترافيين أذكياء وخبراء حاذقين غير مؤهلين، ويا للأسف! لأداء دور المثقف العام. إنهم ينتمون إلى مؤسساتهم، ويبقون غرباء عن جمهور العامة.